

الفصل الأول

حقيقة أهل الذمة

وفيه ثلاثة مباحث

المبحث الأول: التعريف بأهل الذمة

المبحث الثاني: من تثبت له الذمة من غير المسلمين

المبحث الثالث: بم يكون غير المسلم ذمياً

المبحث الأول التعريف بأهل الذمة

الذمة - بكسر الذال وفتح الميم وتشديدها: العهد، والكفالة، والأمان، والضمان، والحرمة، والحق.

قال ابن منظور في اللسان: والذمة: العهد والكفالة وجمعها ذمام، وفلان له ذمة أى حق، وفى حديث على - كرم الله وجهه-: ذمتى رهينة وأنا به زعيم أى ضمانى وعهدى رهن فى الوفاء به، والذمام والذمامة: الحرمة- والذمام: كل حرمة تلزمك إذا ضيعتها المذمة، ومن ذلك يسمى أهل العهد أهل الذمة.. قال الجوهري: الذمة أهل العقد، وقال أبو عبيدة: الذمة الامان.. (١).
ووردت كلمة ذمة فى القرآن الكريم ﴿لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا ذِمَّةً﴾ [التوبة: ٨] أى عهداً (٢).

وفى الحديث «ويسمى بذمتهم أديانهم» ذمة المسلمين واحدة «أقلبنا بذمة»، فقد برئت منه الذمة» ومعناها فى كل ذلك العهد والأمان والحفظ والكلال (٣).

وأهل الذمة فى اصطلاح الفقهاء: من عاهدهم الإمام أو نائبه من غير المسلمين عهداً مؤبداً على أمنهم فى أنفسهم وأموالهم وأعراضهم وعقيدتهم نظير التزامهم الجزية ونفوذ احكام الإسلام الدينوية عليهم (٤).

فأهل الذمة يتمتعون بالأمن على أنفسهم وعقيدتهم وأموالهم وأعراضهم بموجب عهد المسلمين لهم وهم فى هذا يختلفون عن غيرهم من غير المسلمين الذين لا يتمتعون بهذا العهد المؤبد، ولذا لزم التفرقة بين أهل الذمة وغيرهم أو ما قد يلتبس بهم.

أولاً: أهل الكتاب:

أهل الكتاب من لهم كتاب سماوى ويدينون به كاليهود والنصارى، وهل يشمل هذا

(١) لسان العرب - ابن منظور - ج٢١/ ١٢٢١ دار الفكر وبمراجعة: المغرب - أبو المكارم المطرزي ١٧٦، المصباح المنير - الفيومى - ٢١٠.

(٢) وجاءت الكلمة فى موضع آخر «لا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة» ومن معانى «الإل» العهد، والتكرار لاختلاف اللفظين.

(٣) النهاية فى غريب الحديث والأثر - لابن الأثير الجزرى ج٣/ ٣٢٤.

(٤) مطالب أولى النهى - الرحيباني - ٥٩١/ ٢.

المصطلح من يؤمن بزبور داود أو صحف إبراهيم وشيث وغيرهم أم أنه قاصر على اليهود والنصارى؟ فالجمهور على أن أهل الكتاب هم: اليهود والنصارى بفرقهم المختلفة، وتوسع الحنفية فقالوا: إن أهل الكتاب هم: كل من يؤمن بنبي ويقر بكتاب، فيشمل اليهود والنصارى ومن آمن بزبور داود وصحف إبراهيم وشيث وذلك لأنهم يعتقدون ديناً سماوياً منزلاً^(١).

ولا تلازم بين أهل الذمة وأهل الكتاب فقد يكون ذمياً غير كتابي كالمجوسى، وقد يكون كتابياً غير ذمى وهو من كان فى غير دار الإسلام من اليهود والنصارى أو نقض عقد الذمة مع المسلمين.

فالنسبة بين أهل الذمة وأهل الكتاب: أن كل واحد منهما أعم من الآخر من وجه وأخص منه من وجه آخر فيجتمعان فى الكتابي إذا كان من أهل الذمة.

ثانياً: أهل الأمان:

ويطلق هذا المصطلح على المستأمنين: من دخلوا دار الإسلام على أمان مؤقت من قبل الإمام أو أحد من المسلمين^(٢).

فالفرق بين المستأمن والذمى أن أمان أهل الذمة مؤبد، وأمان المستأمن مؤقت، كما أن الذى يمنح أمان الذمى الإمام أو نائبه أما أمان المستأمن فيجوز لكل مسلم أن يمنحه ما روعيت فيه مصلحة المسلمين، كما أن المستأمن لا يدفع جزية مقابل أمانه بخلاف الذمى.

ثالثاً: أهل الهدنة:

ويسمى أهلها مهادنون أو مواد عون أو معاهدون، والهدنة هى: أن يعقد لأهل الحرب عقد على ترك القتال مدة بغير عوض أو بعوض^(٣).

ويختلف أهل الهدنة عن أهل الذمة أن أهل الهدنة لا يقيمون بموجب هذا العهد فى دار الإسلام ولو حدث فيكون مؤقتاً، كما أن الهدنة لا يلزم أن تكون بعوض يدفعه المحاربون بخلاف الذمة فلا بد فيها من عوض.

ويختلف المهادنون عن المستأمنين فى أن المستأمن قد يمنح الأمان من قبل الإمام أو من أفراد

(١) شرح فتح القدير - الكمال بن الهمام - ج٦ / ٤٨ المغنى - ابن قدامة - ج٧ / ١٠٠.

(٢) الأمان ضد الخوف وتعريفه اصطلاحاً: رفع استباحة دم الحربى ورقه وماله حين قتاله أو العزم عليه مع استقراره تحت حكم الإسلام مدة ما.

يراجع شرح حدود ابن عرفة - ١٤٣.

(٣) عرفها ابن عرفة بقوله: «المهادنة: عقد المسلم مع الحربى على المسألة مدة ليس هو فيها تحت حكم الإسلام، ومن مترادفات المهادنة: الصلح والإستيمان والمعاهدة، شرح حدود ابن عرفة ١٤٤.

المسلمين أما الهدنة فلا يعقدها إلا الإمام أو نائبه .

رابعاً : أهل الحرب :

الكفار من أهل الكتاب والمشركين الذين امتنعوا عن قبول دعوة الإسلام ولم يعقد لهم ذمة ولا أمان، ويقطنون في دار الحرب التي لا تطبق فيها أحكام الإسلام . والمحارب غير المعاهد يحل دمه وماله وأرضه ويكون ولي الأمر مخيراً في أسراهم بين القتل والرق والمن والفداء وفرض الجزية على القادرين منهم .

وهذا المصطلح لا يطلق إلا في حرب المسلمين مع الكفار وأحكام الحرب والسلام أو أحكام الجهاد وأثاره لا تنطبق إلا على ذلك، أما في محاربة المسلمين لبعضهم - للأسف - فلا تطبق عليها أحكام الجهاد وإنما تطبق عليها أحكام البغى المفصلة في الفقه الإسلامي والمأخوذة من قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتُلَا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتَ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلَا الَّتِي تَبَغَى حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [الحجرات : ٩] .

وجهاد المحاربين من فرائض الإسلام ويتعين الفرض إن سلب هؤلاء المحاربون أرضاً أو عرضاً أو مالا للمسلمين ووجب على من بالمشرق نصرة أهل المغرب وكذا العكس، ولا يحل مودتهم ولا تبادل المصالح معهم ولا تصدير ما يتقوون به على قتالنا وقد ذم الله نغراً من المنافقين عند ما سارعوا إلى التحالف مع المحاربين خشية حرمانهم من بعض الفوائد والمصالح الدنيوية فقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٥١) فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين ﴿ [المائدة : ٥١ ، ٥٢] .

ويختلف أهل الحرب عن أهل الذمة في أن أهل الحرب لا أمان لهم ولا عهد ويجب أن يقاتلوا بخلاف أهل الذمة .

خاصاً : الكفار :

جميع غير المسلمين يطلق عليه لفظ كفار سواء كانوا أهل كتاب أم كانوا وثنيين أم كانوا لا دينيين، كما يطلق على المسلم المرتد .

فالكفر نقيض الإيمان فاهل الكتاب وإن كانوا يؤمنون بالله -على ما يدعون - فقد كفروا بنبوته محمد ﷺ بل وكفروا بالإسلام فهم من هذه الناحية كفار وقد وصفهم الله عز وجل بتلك

الصفة فى محكم آياته فقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧] وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣] وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزَنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ [المائدة: ٤١].

وذكر ابن منظور فى اللسان أن عبد الملك كتب إلى سعيد بن جبير يسأله عن الكفر فقال: الكفر على وجوه: -- فكفر هو شرك يتخذ مع الله إليها آخر، وكفر بكتاب الله ورسوله، وكفر بإدعاء ولد لله، وكفر مدعى الإسلام وهو أن يعمل أعمالاً بغير ما أنزل الله ويسعى فى الأرض فساداً ويقتل نفساً محرمة بغير حق ثم نحو ذلك من الأعمال كفران: أحدها: كفر نعمة الله، والآخر: التكذيب بالله..»^(١).

إلا أن الإسلام يفرق بين كفر أهل الكتاب وغيرهم، حيث إن كفر أهل الكتاب يدعون إيمانهم بالله واليوم الآخر وإن كان هذا الإيمان محرّفًا ثم هم أتباع دين حق وإن كان منسوخًا بدين الإسلام، ولذلك ميزهم الإسلام عن الوثنيين والمشركين والدهريين وأشباه ذلك فى جواز نكاح النساء الكتابيات وذبائح الكتابيين وغير ذلك من المستثنيات وتفصيل وتقييد، حيث لا تجوز التسوية بين أهل كتاب يعيشون مع المسلمين لا يعادونهم ولا يتآمرون عليهم ولا يمحرون بهم وبين أهل كتاب يتربصون بالمسلمين الدوائر يسلبون أرضهم وديارهم ويهتكون أعراضهم باسم الصليب أو ما يسمى عندهم بالتطهير العرقى. فالآخرون محاربون يجب على جميع المسلمين قتالهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله.

(١) لسان العرب ج٥/ ١٤٥.